هو جدير بالاهمية: ان المعقول، او الضمير، يتشكل استجابة للحركة على الأرض. فالمكاسب التي حظيت بها الامبراطوريات الناشئة، او التي طمحت الى النشوء، هي التي كانت معيار المعقول واللامعقول.

فليس من المعقول بالطبع ان يلزم دافع الضرائب الغربي نفسه بدفع راتب سنوي لمستوطنين يقيمون في مكان غامض اسمه «فلسطين» لا يذكر الّا في التوراة كما تذكر تذكارات المتاحف، ولكن هذا الأمر يصبح «معقولاً» حين يقف هؤلاء المستوطنون لمنع «البربرية» العربية من تمزيق «المصالح الغربية»!

لننسَ التبريرات اللاهوتية، ولنتذكر، فقط، ان ما يسمّى «دولة اسرائيل» ليس، في الحقيقة، سوى مسرح «خيال الظل»، ذلك الذي كان لنا فضل ابتكاره منذ قرون، ثم نسينا فضائله، ونسينا، بعبارة اوضح، ممّا يتكوّن وكيف يعمل؛ أندرك، الآن، واجب تعليمه وادراج صناعته في المناهج التربوية؟

المعقول، اذاً، يزداد معقولية كلّما برهن على جدواه. هذا تبسيط، ولكنه أعمق من أميال في بئر اللاهوتيات والحديث عن الحقوق. نحن لا نلمس حديثاً عن الحقوق ومشروعية الحجر الفلسطيني في التحليلات الغربية؛ ولكن ما نلمسه هو حديث عن لامعقولية الوضعية الاستيطانية الصهيونية، وهذا فارق هام. فقد كسر الفلسطينيون تاريخ المعقولية الذي تجلبب به تجمُّع المستوطنين. وها هي الصحافة الغربية ومفكرو الغرب يتأملون الشظايا.

الواقع نفسه، ذلك الذي استندت اليه «معقولية» المشروع الصهيوني وحوّلته الى فكرة مقبولة في الذهنية الغربية، هو واقع القرن التاسع عشر وليس واقع الامر الراهن؛ وما كان لهذه «المعقولية» ان تبقى لولا اننا لم نكن من ابناء اي من هذين القرنين!

ادّعى أحد المستوطنين الاميركيين بأن مجيئه الى فلسطين كان بسبب جاذبية عاطفية، وبسبب عدم رغبته في البقاء على هامش التاريخ اليهودي؛ أي ان هذا المستوطن اراد ان يقول ان التجمّع الاستيطاني هو «تاريخ يهودي». ولكن هذا الوهم يقتضي منه ان يفتح التوراة ويختبىء بين صفحاتها، (فعل لامعقول)، وليس اقامة مستوطنة على ارض شعب آخر (فعل معقول)، لأن ما يحدث على أرض فلسطين هو حلقة من حلقات التوسّع الغربي.

متى يتمّ ادراك الحقيقة واصابة «المعقول» الذي يحتضنه هذا المستوطن باللامعقول؟ أي متى تنعكس الآية؟

يتمّ ذلك، بالطبع، تحت ضغط واقع جديد يشق طريقه الى العلن، كما يحدث الآن.

ليفحص مفكرو الاستيطان والغرب الشظايا الآن، ولتندهش التقارير الصحافية من اكتشافها ان الفلسطينيين على الساحل الفلسطيني هم فلسطينيون حقاً، وليسوا اسرائيليين؛ وليطالب ميرون بينبينستي باتخاذ قرار الآن قبل فوات الاوان؛ وليتخوّف الليكود من فاتحة القرن المقبل، التي ستكون تلاوتها امتيازاً للطفل الفلسطيني؛ وليقترح هذا وذاك اعادة عقارب الساعة الى وراء، الى ما قبل شهرين، فكل شيء يشير بقوة الى انتهاء القرن التاسع عشر قريباً.

ليس لنا ان نربط بين كل هذا وبين ما يسمّونه صراع الحقوق بين «شعبين». فتلك رشوة تاريخية تجاوزها الفيتناميون حين تفاوضوا مع الاستراتيجي الاميركي، وحين أدركوا، منذ البداية، سرّ مسرح «خيال الظل» الذي أُقيم على أرضهم. وحين يراد لنا ان نقتنع بأن الحملات العسكرية هي